

خطوط عريضة في شخصية الشيخ العلامة البيحاني

عبد الملك الشيباني

لقد كان الشيخ العلامة محمد بن سالم البيحاني قامة يمنية عملاقة لنبوغته في العديد من العلوم والفنون، ولأنه كان رائداً تجديدياً، ومصلحاً اجتماعياً، وشخصية اجتماعية لها وزنها الكبير، وشهرتها الواسعة ومكانتها العالية كنتاج طبيعي لما قدمه من أعمال، وبما كان له م مشاريع ومنجزات في العديد من الجوانب والمجالات والميادين، وأهمها جانب الإصلاح الديني، والاجتماعي ولا سيما فيما يتعلق بالمرأة، ثم في الجانب التربوي والتعليمي والثقافي، وغير ذلك مما خلده في الذاكرة اليمنية، وفي تاريخ اليمن المعاصر كشخصية علمية فذة بحجم الوطن اليمني كله، بل وتجاوزه إلى الوطنين العربي والإسلامي إلى حد ما وكانت له شبكة واسعة من العلاقات الاجتماعية والصدقات الشخصية والتواصل المستمر داخلياً وخارجياً مع الملوك والرؤساء والنخب الدينية والعلمية والثقافية والسياسية والاجتماعية والتجارية والتي استطاع بتوفيق الله تعالى له أن يوظف علاقاته مع كل أولئك وأمثالهم في طريق يخدم الصالح العام ويخدم قضايا الأمتين العربية والإسلامية وفي مقدمتها الشعب اليمني، ويخدم الثوابت الوطنية والعربية والإسلامية قبل ذلك.

وهو الفقيه العالم الأديب الشاعر والمربي والخطيب والواعظ الذي سخر قلمه وملكاته وقدراته في ذات الطريق الأنف ذكره .

وفي هذا السياق وضمن ذلك الإطار كان موقفه الصلب إزاء الشائبة النكدة التي وقعت الأمة في براثنها، أعني وقعت بين سندان الجمود - بالميم - ومطرقة الجحود - بالحاء - والأول داخلي والثاني خارجي ولولا الجمود الداخلي لما تمكن الجحود الخارجي في أوطاننا وبين شعوبنا حسب توصيف الشيخ البيحاني نفسه. ولقد كان للشيخ البيحاني أثره العميق، وبصماته الواضحة في مجريات الأحداث آنذاك على المستوى الديني والاجتماعي وغيره وفي مخرجاته العملية في ميدان التربية والتعليم وتوريث الأجيال وتنشئتها حيث نجد أنه وعلى سبيل المثال لا الحصر أسس لها مع غيره بالطبع - جمعية خيرية يتم تمويلها من

خلال التبرعات التي كانت تجمع من الداخل والخارج والتي كان المعهد العلمي الإسلامي - ذلك الصرح التربوي العلمي الثقافى الكبير في ((حقات)) بكريتر ((عدن)) أحد إنجازاتها.

وكان البيحاني نفسه نتاج مدرسة فقهاء وعلماء اليمن التقليديين آنذاك ثم المدرسة الأزهرية في مصر .

وابتدأ البيحاني حياته العلمية بدراسته وهو طفل صغير بعد إصابته بالعمى وهو في سن الخامسة في قريته على يد والده ثم طلب العلم في مدينة ((تريم)) حضرموت، ثم في عدن وبالذات في الشيخ عثمان وختمها بالأزهر الشريف في مصر حيث نال شهادة العالمية.

واستقر أخيراً في منطقة ((كريتر)) عدن حيث كان خطيباً وإماماً ومفتياً وواعظاً ومعلماً في مسجده الذي ارتبط به معظم حياته ((مسجد العسقلاني)) في منطقة ((شعب العيدروس)) مع كونه كان مرجعية للناس في عدن بل في اليمن كلها يأتون إليه للفتوى ولغير ذلك من الأمور .

ولمكانته الكبيرة في صفوف الناس اضطر الاحتلال البريطاني أن يتيح له فرصة إلقاء كلمات أسبوعية في إذاعة ((عدن)) الرسمية .

كما أنه لمكانته تلك أيضاً كان هو الوسيط الذي ارتضته جبهتا ((التحرير)) و((القومية)) في عدن إبان نشوب الفتنة بينهما كما أفلحت وساطته لدى الإمام أحمد في إخراج كوكبة من الأحرار من سجونه وكان للبيحاني أدواراً هامة في أكثر من مؤسسة اجتماعية أو دينية أو نحو ذلك مثل كونه من أبرز رجالات الصف الأول في نادي الإصلاح الاجتماعي الذي أسسه الأستاذ / أحمد محمد الأصنج، كما كان البيحاني من أبرز المؤسسين ثم المحاضرين في ((المركز الثقافى الاجتماعى الإسلامى)) في كريتر ومن المؤلفات المطبوعة التي خطها الإمام البيحاني ما يلي:

- 1- كتاب إصلاح المجتمع.
- 2- كتاب ((أشعة الأنوار)) - تاريخ.
- 3- كتاب ((معاملة ودين، وعبادة ودين)).
- 4- كتاب ((تحفة رمضان)).
- 5- كتاب ((ديوان الخطب المنبرية)).
- 6- كتاب ((الفقه المبسط)).

7- كتاب ((بلدة طيبة ورب غفور)) .

8- كتاب ((كيف تعبد الله ؟)) .

9- كتاب ((نحو المسجد)) .

10- أستاذ المرأة

وغيرها .

ولكي نتعرف على بعض من جوانب وملامح شخصية البيحاني من جانب، ولتبيين مكانة ((المرأة)) عنده من جانب آخر ولأهمية كتاب ((أستاذ المرأة)) من جانب ثالث.

من أجل ذلك كله أقدم هذا العرض الموجز لذلك الكتاب والذي فصل فيه الإمام البيحاني ما للمرأة وما عليها، أو تحدث عن همومها ومعاناتها وقضاياها ومشاكلها وما ترزح تحته من ضغوط العادات والتقاليد المنافية لتعاليم الإسلام السمحة، وأوجز من غير خلل كل ما تحتاجه المرأة في دينها ودنياها وحياتها بأسلوب سلس رائق عذب لطيف مرصع بالأدلة والنصوص الشرعية ومدعم بالشواهد من الحكم والشعر والطرف والملح والأقوال الموثقة المعتمدة .

واحتوى الكتاب على عناوين عجيبة ومنها العناوين التالية ((حماية الآداب العامة - سياسة المرأة وسداد رأيها - المرأة في الميدان - الطب والصحة - الحرف والصنائع)).

ولنستمع للبيحاني نفسه وهو يلخص ما في كتابه هذا في "الصفحة 15" حيث يقول مخاطباً المرأة :

((ولن ألو في السير معك صغيرة وكبيرة وذات زوج وداخل البيت وخارجه، وعلى المنسج والمغزل ومكيئة الخياطة والمكتب وفي المطبخ والمستشفى وفي جميع ما يصح أو ينبغي لك أن تباشريه من أعمال النسوة في المدرسة والبيت والمعبد والمعمل معلمة ومتعلمة ومربية وطبيبة ومتعبدة وبائعة ومشتريّة ومعيرة ومؤجرة وموكلة ومودعة ومورثة)).

فكيف إذا عرفت أن البيحاني ألف هذا الكتاب في سنة 1369هـ الموافق 1949م كما أشار لذلك في "صفحة 303" من نفس الكتاب.

والشيخ البيحاني شاعر موهوب وشعره في الذروة، وهو لا يقل عن شعر أشهر الشعراء العرب روعة وجمالاً لولا أن الإمام البيحاني لم تتح له نفس الفرص

التي أتاحت لأولئك، ولم تنتهياً له الأجواء المناسبة مثلهم، ولا وجد من يقوم بتسويقه خارج اليمن .

وبين أيدينا هذه النماذج من شعر الشيخ البيهاني أوردها لتكون من الشواهد على ما قلته بالإضافة إلى كونها تعطينا مزيداً من معرفة ملامح شخصية البيهاني ومنهجيته وتسلط الأضواء عليه كأديب وشاعر فريد متميز . وأبدأ النماذج بقصيدة عدد أبياتها 45 بيتاً وأذكرها كاملة لجمالها وروعيتها وأسلوبها العذب السلسال ورشاقة ألفاظها و الخ وهي من الموشحات وفيها يقوم الشيخ البيهاني بتوصيف أو وصف وتيرة الحياة في ((عدن)) ثم كيف آلت بعد ذلك وهو يتحسر على ذلك المآل في ظل الاقتتال بين جبهتي " القومية" و"التحرير" فيقول:

لست أدري لست أدري هل يباح	آح يا قلبي المعنى ثم آح
أن يبيث المرء الأم الجراح	أم حرام في الأقاويل الصحاح
ما على الصب إذا ما قال آح	نبئوني يا صماصيم الكفاح
لا أراك الله فضلاً من عدن	يالوالي الأنس في هذا الوطن
ما الذي فرقنا حتى يظن	يا بلاد الأنس في ماضي الزمن
ما على الصب إذا ما قال آح	أن وقت الأنس قد ولى وراح
حينما يمتد للناس البساط	أين ذاك الأنس أين الإنبساط
وكان القوم قد جازوا الصراط	في مكان بالمسرات محاط
ما على الصب إذا ما قال آح	في سرورٍ وحبٍ وورٍ ومزاح
مالها والله في الدنيا مثيل	جلسة في "عدن" أقبل قليل
ما الذي صار "لقيس" و "جميل"	يتبارى الناس أصحاب المقييل
ما على الصب إذا ما قال آح	ومع "القات" وضرب القдах

والأغاني من كلام " الأنسي" ¹	بخيال شاعري خامس
يصف القصد بغصن مائس	لفتاة ذات طرف ناعس
يتثنى بين ورد وأقحاح	ما على الصب إذا ما قال آح
وبيوت الله كانت عامره	برجال يعمرون الآخرة
حلقات العلم فيها زاخره	بوجه زاهرات نيـره
في اجتماعات مساء وصباح	ما على الصب إذا ما قال آح
أين بالله اجتماع العلماء	من فلان وفلان الحكماء
ذهب العلم ومات العلماء	وأرى الأرض لأصحاب السماء
سلمت ما كان فيها من صلاح	ما على الصب إذا ما قال آح
يا رجالاً في رحاب "العيدروس" ²	أين ما في "العسقلاني" ³ من دروس
و"أبان" ⁴ حيث ترتاح النفوس	أفنحن اليوم في حرب "البسوس" ⁵
تغمد الكتب ويستل السلاح	ما على الصب إذا ما قال آح
عجباً من لؤلؤ فوق ذهب	تنثر الأشياخ علماً وأدب
من كلام المصطفى خير العرب	حينما يقرأ في شهر "رجب" ⁶
ليلة الختم وعند الافتتاح	ما على الصب إذا ما قال آح
ثم نحن اليوم في هذا البلد ¹	لا يرى في السوق منا من أحد

¹ الأنسي: يقصد به الفنان اليمني المعروف "علي الأنسي".

² "العيدروس": اسم الحي الذي عاش فيه البيهاني في "كريتر" - عدن.

³ "العسقلاني": اسم مسجد البيهاني في ذلك الحي.

⁴ "أبان": مسجد معروف ومشهور في كريتر - عدن.

⁵ "حرب البسوس": حرب شهيرة بين بعض قبائل العرب قبل الإسلام.

⁶ "في شهر رجب": يشير إلى العادة السنوية لقراءة صحيح البخاري في اليمن.

خشية أن يقتل "الثعل" ² الأسد	هكذا الوضع إذا الوضع فسند
تختفي "العمة" ³ من تحت الوشاح	ما على الصب إذا ما قال آخ
"عدن" كانت بمن فيها تعج	بين من يهمس فيها أو يضح
وازدحام الناس فيها مزدوج	جوها يمسي من الطيب أرج
والتراب اليوم تحثوه الرياح	ما على الصب إذا ما قال آخ
كنت لا تشهد فيها عقرباً	أو ذباباً أو زقاقاً مترباً
بلغ السيل كما قيل الزبي	وعلت أوساخه فوق الريبي
والمجاري سددت "والمستراح" ⁴	ما على الصب إذا ما قال آخ
بعد أصوات الملهي والغنا	صرت لا تسمع شيئاً من هنا
غير صوت الرعب من خلف البنا	بنندق أو مدفع يفزعنا
وصياح "الجن" من فوق الضياح	ما على الصب إذا ما قال آخ
تفزع الأطفال بل والأمهات	طلقت النار بين الجبهات
ومقال البعض خذ مني وهات	وعضال الداء تفتيش البنات
يرفع الستر بأطراف الرماح	ما على الصب إذا ما قال آخ
وإذا الشمس تدانت للغروب	كاد "شمسان" ⁵ من الخوف يذوب
رينا عجل بتفريج الكروب	هذه الأفواه تدعو والقلوب
تطلب العفو وترجوك السماح	ما على الصب إذا ما قال آخ

¹ "البلد": مدينة تعز.

² "الثعل": الثعلب.

³ "العمة": العمامة.

⁴ "المستراح": مكان قضاء الحاجة.

⁵ "شمسان": هو الجبل المشهور المطل على مدينة "كريتر" - عدن.

وفي لوحة جديدة من شعره تأتي في مضمار ونسق سابقتها وإن لم تكن من بحرهما، وفيها يصف "عدن" كموطن له يحن إليه أشد الحنين لما له من ذكريات جميلة عزيزة، كما يصف مختلف أحواله فيها وبرنامجه فيقول:

أحن إليك يا بلد المعالي ومالي لا أحن وألف مالي
وفي "عدن" العزيزة كل شيء يعز علي من أهلي ومالي
ولو أنني سكنت على الثريا لقلتُ إليك يا "عدن" مالي
ولكن "معهدني" وله حياتي بذلت وما جمعت من الحلال
وكنت أعيش في "عدن" إماماً لأعظم مسجد وبه اشتغالي
وكنت خطيبه والناس حولي قد اجتمعوا ليستمعوا مقالي
وكان الدرس يوماً في البخاري وفي "سبل السلام" من الرجال
وللتفسير نعد لها دروساً وإن حدثت فالإسناد عالي
وما "ابن جرير" وما "ابن كثير" إلا شيوخاً قد ملأت بهم حياتي
فيا حلقات درس "العسقلاني" غيابي عنك أمر كالحال
ولن أنسك لا والله حتى أوسد في الثرى بعد انتقالي
ولست بخائنٍ وطني وديني وقومي يعرفون صحيح حالي
وفي لوحة أخرى لا تقل روعة عن أختها وفيها يصف الشخص المنافق فيقول:

يدور مع الزجاجة حيث دارت ويلبس للعمامة ألف لبس
وعند المسلمين يعد منهم ويطلب سهمه من كل خمس
وعند الملحدين يعد منهم وعن "ماركس" يحفظ كل درس
ومثل الإنجليز إذا رأهم وفي "باريس" محسوب فرنسي